ادمون صبري

ليلة فرجة

أقاصيص طريفة

أدمون صبري

ليلة فرحة

أقاصيص طريفة

مطبعة الثقافة ـ بغداد

١٩٦٠

بعد فوات الاوان

كانت مناسبة تفصيل فستان العرس للآنسة أناهـيد ، وهى أبنة جورج الثالثة ، الرجل الأرمل الذي يعمل أجيراً في معمل السمنت . وأناهيد في السابعة عشر ذات ذكاء متوقد وبشرة حليبية بيضاء تهوى مشاهدة المسرح والتنقل والاستخفاف بالمتاعب ، ولعل هذا ما جعل خطيبها يشغف بها ويغرق في حبه حتى الاذنين كما يقولون . جرت هذه المناسبة مساء الجمعة الفائتة حيث كانت وطأة البرد قد خفت كثيراً وتحرر الناس من لهيب المدافيء واحتمال رائحة البترول . فمنذ الساعة الرابعة توافد على المنزل عدد من السيدات الصغيرات المحتميات بالفرو الثمين والمطقطقات بأحذية ذات كعوب عالية فأحتللن المقاعد البارزة وانشأن يثرثرن ويشنفن آذانهن بالموسيقى الصاخبة التي يبعثها جهاز الراديو كرام الذي تديره فيوليت أبنة جورج الثانية ، والتي لم يفتح عليها الله بخطيب رغم بلوغها الحادية والعشرين . كانت قد اقتعدت كرسياً من غير مساند الى جانب الراديو كرام تضع الاسطوانات في كثير من الأعتناء وتؤرجح رأسها مع النغم وتبتسم للمدعوات دون ان يخجلها البتة الخدش الكبير الأحمر فوق خدها الأيمن ، بل انها لتعلن من غيرها حيـــاء انها تخاصمت بالأمس مع ماركريت الأخت الكبرى عندما طلبت اليها ان تكوي بعض الملابس فرفضت فيوليت وهرت في وجه أختها فأشتبكت الاختان في عراك دام ، حتى الوالد نفسه عجز عن الحجز بينهما وقد تألم من جراء ذلك أبلغ الالم ، فأبنتان كبيرتان في سن الزواج أو ربما تجاوزتاه تتهاتران

وتتخانقان وتجرح إحداهما خد الأخرى من أجل أمر تافه والادهى ان الابنة الكبرى البالغة الخامسة والعشرين من العمر قد غدت خياطة منذ عام وصارت تكسب كثيراً من مهنتها ومع ذلك فلم تتمتع بالاحترام ولم توقرها اختها الصغيرة.

ان مثل هذه الأشتباكات لم تكن تقع في حياة زوجته . كان الانسجام يسود بين الاخوات جميعاً ونفوذ الام مبسوط في أرجاء البيت والطعام منظم والاحترام متبادل ، ومنذ وفاتها ضاعت المسئولية وأختلت مواعيد الطعام وساد الهرج وأعلنت الفوضى وأنعدم الاحترام وغدت المعارك أمراً مألوفاً تنشب لاتفه الاسباب فتطاير من الافواه الشتائم وتصف أحداهن الاخرى بالحمقاء والكلبة وذات البوز الطويل، ولم تعد الصغيرتان تحترمان اختهما الكبرى التي صارت تساهم فى نفقات البيت مساهمة مشكورة بأرباحها في الخياطة ، وعلى هذا اصبح الأب يعاني شعوراً بائساً حرجاً فكأنه رجل غريب عن بناته أشبه بمسافر يقيم مع فتيات حمقاوات ، بل انه ليخجل من الاضطجاع على فراشه في غرفة تضم ثلاث فتيات يانعات بلا أم

وما ان أزفت الساعة الخامسة حتى اندفع فوج جديد من المدعوات بينهن سيدات مسنات شائبات الشعر يتمتعن بقسط كبير من تجلة الصغيرات واحترامهن . كان يتقدم هذا الفوج سيدة وقورة تحمل بين ذراعيها صينية من الالمنيوم عليها قطع الاقمشة المهداة الى العروس ، فأنطلقت التهاليل وعم الفرح واختالت أناهيد فخورة لامعة للاهتمام العظيم الذى يولينه اليها المدعوات اللاتي اجتمعن واحتفلن من أجل تفصيل فستان عرسها ، فعلا اللغط وغمر صخب الموسيقى البيت كله وأستعيدت شيش كباب وماكرونا عشرات المرات دون أن يمل أحد من سماعها ، واقبلت كاترين وحدها على عجل وهي خالة العروس المترملة منذ عام فألقت تحية حماسية حارة على جورج وخلعت

معطفها وقبعتها وشرعت تعمل في اعداد الشاي والحليب للمدعوات ، وكان جورج يروح ويغدو في باحة البيت حاثاً عواطفه بغير جدوى للانسجام مع المناسبة المفرحة . والحق أنه لم يجد اي لزوم أو ضرورة للضجة كلها ولم يستشعر أيما متعة أو ابتهاج بل مجرد ثرثرة وسخافات لأشغال أدمغةخاليةمن كل هم ، وتضاعف ضيقه وتبرمه حين تقدمتابنته الكبرى وقرفصت على بساط الارض وأمسكت بطرف قماش أبيض من التفتة وهمت أن تقصه ، إلا أنها أمسكت عن المقص وقالت تحدث المدعوات وكأنها تشكو اليهن المقص الذي يأبى أن يمضي عبر القماش ـ انه عنيد لايتحرك ـ فأخرجت المدعوات نقودهن وهداياهن وألقين بها أمامها . تمتم جورج في هزوء ـ بدعة عتيقة أكل عليها الدهر وشرب ـ لوى شفتيه وبصق في منديله بصقة صاخبة وتابع يهمهم ـ المقص لايقص فهاتين أيتها المدعوات نقودكن وهداياهن . فى كل مناسبة تقال الكلمات نفسها والمدعوات قد اعددن عطاياهن سلفاً .

كانت الغرفة غاصة بالمدعوات ولذا لم يكن فيها موضع لقدم ، فأنزوى جورج في الغرفة المجاورة الصغيرة ولا يفتأ خد ابنته المخدوش يثير فى نفسه شعوراً مرأ يزيد في وخامته احزانه على زوجته الراحلة منذ ثلاثة أعوام .

وفي الغرفة الاخرى نشطت الخالة في غسل أكواب الشاي وتجفيفها واعداد السكر وتقطيع الكيك فتعلقت بها انظار جورج معجبا بخفتها وذكائها ولطفها الجم وقوة شخصيتها

كانت ذات يوم هدف جورج حين اعتزم ان يتزوج . طلبها من ابويها فرفضا وقدما له بدلا عنها زوجته المتوفاة فأستاء في حينها وهم ان ينكص على عقبيه الا ان قلبه الرقيق استجاب لنظرات زوجته وملاطفاتها فتحول في الحال تيار افكاره نحوها وتم زواجه . ان له مع كاترين شأناً قديماً وذكرى ما تزال

بادية أمام عينيه . وتزوجت كاترين فيما بعد برجل كان في زعم والديها أنه ارفع مكانة من جورج واكثر كسباً وأليق مظهراً وتبين بعد حين انه مقامر سكير سرعان ماتدهورت حاله وسقط فيمهاوي الفاقة والعوز وانتهى الى مرض وبيل قضى على حياته ، بينما هو العامل الاجير المحدود الكسب قد نهض خير نهوض باعباء البيت وادارة شؤون العائلة وتربية بناته واسعاد زوجته الراحلة. انها هي الاخرى ارملة مثله غير انها لم تنجب اطفالاً . فكر جورج ان يحدث كاترين عن سلوك بناته ، ثم عن المعركة المخجلة التي وقعت بالامس بين اثنين من بناته وكان من جرائها الخدش الكبير في وجه فيوليت .

كانت كاترين قد تحررت من فستانها الاسود منذ أسبوعين حداداً على زوجها الراحل واستعاضت عنه في هذا اليوم بفستان وردي كثير التخاريم عند العنقمنفرج الياقة ذي اكمام قصيرة تضيق كثيراً عندالمرفقين . كانت تبدو جميلة وبصحة جيدة تطفح بالبشر والنشاط . ان بناته جميعاً يحترمنها غاية الاحترام وعندما تزورهن يتحلقن حولها ويمطرنها بالقبلات ويتنافسن على خدمتها همهم جورج « انها ارملة مثلي ولكن من غير مشاكل » .

واذا ماجمعت ماركريت الهدايا التي قدمت لها أجرت مقصها في القماش فتحول في دقائق الى أوصال متناثرة جمعتها في عناية وأودعتها الخزانة . ثم عادت الموسيقى فعربدت من جديد وحملت كاترين الأكواب الفارغة الى المطبخ وغسلت يديها وجففتهما بالمنديل فابتسم لها جورج ابتسامة ودية رغم حزنه وانقباضه ،فسعت اليه وهنأته بقرب زفاف ابنته اناهيد فأجاب جورج بعدم اكتراث « شكراً لك يا كاترين » ولم يشأ ان يضيف كلمة أخرى في هذا المقام الخطير فدلفت الى غرفة المدعوات وضاعتفي زحمة النساء « قال يحدث نفسه » أرملة سعيدة مرحة ، حتى بناتي يحترمنها اكثر مني وفوق هذا فلا زالت

كالشابة جميلة متوردة الوجنتين مثلها أيام خطوبتي لاختها ـ جر نفسه في ضجر الى الغرفة الخالية التي كانت فيها كاترين تهيء الشاي والحليب وكان على المشجب معطفها وقبعتها ، نظرهما جورج نظرة طويلة فطافت في خاطره فكرة .

ليت تقيم هذه الارملة الجميلة في بيته فتضبط سلوك بناته ويستعيد شعوره المطمأن بأنه رب عائلة حقيقية لا رجلاً غريباً يعيش مع صبيات .

استلقى في فراشه نصف نائم ونصف مستيقظ ، تندفع الى اذنيه كل لحظة عبر الابواب والشبابيك قهقهات المدعوات وزعيقهن وطقطقة احذيتهن عندما ينصرفن ؛ حيث تقودهن كاترين الى المجاز وتودعهن عند الباب بكلمات رقيقة عذبة .

واخيراً ساد الهدوء وصمت الراديوكرام ورفعت الشيش كباب والماكرونا وادخلتا في كيسيهما ، فتنفس جورج الصعداء كما لو رفع عن كاهليه ثقل باهض فساوره شعور متفائل وغدت افكاره اكثر صفاء ووضوحاً . فكر ان كاترين في الغرفة الكبيرة وان يفاتحها في موضوع زواجه . تلك انجح وسيلة لاسترداد سلطانه على البيت فوضع قدميه في الحذاء ورتب شعر رأسه وانصت لحظة الى صوت كاترين . كانت تحادث رجلاً لم يعرف جورج هويته بعد وتقدم ليدير قبضة الباب فسبقته من الخارج يد خفيفة اخرى . كانت فيوليت فابتسمت له ابتسامة ذات معنى وقالت « الخالة كاترين تدعوك » فخفق قلب جورج والتمعت عيناه، اجاب في سرعة « انني قادم اليها » ووقف يديم النظر الى وجه ابنته المخدوش ، فشعرت به فيوليت فرفعت كفها وسدت مكان الجرح وخفضت عينيها نحو الارض شاعرة بالخجل ،قال جورج بصوت عميق مؤنب « يجب الا يحدث مثل هذا مرة اخرى» فردت فيوليت « انه لن يحدث يا ابتي »وتقدم الى الغرفة المجاورة وصوت الرجل الغريب يزداد وضوحاً في أذنيه فلقى الخالة

مستريحة في دعة على احدى الأرائك والى جانبها رجل يراه جورج لاول مرة ، قالت الخالة « اقدم لك خطيبي السيد » . فصعد فيه جورج نظرة كئيبة متسائلا ترى هل هو أرفع مكانة منه وأكثر كسباً وأليق مظهراً ، عسى أن يكون مقامراً سكيراً فينتهي الى جهنم وتنتهي معه الخالة كاترين .



جار شهم

كان أنور يترقب حلول هذا اليوم منذ شهر ويستعد له باهتمام ، فقد أعد قائمة صغيرة باسماء المدعويين الى حفلته التي يعتزم اقامتها بمناسبة مرور سنة على زواجه من نجيبة ، وقد ضمن أنور القائمة ثلاث عوائل · أزواج وزوجات ، إذ اعترضت عليه نجيبة ان يسمح للمدعويين باصطحاب أطفالهم لما يحدثونه من فوضى وبعثرة وبكاء .

كانت نجيبة قد انجبت طفلها البكر وها هو الساعة يضطجع في مهده الوثير يلوك بشفتيه مصاصة من البلاستيك لاتفتأ تقع من فمه فيأخذ بالبكاء فيعيدها اليه أنور من غير مضايقة البتة بل وبشيء من السرور ·

وفجأة ثار نقاش بينه وبين زوجته حول دعوة الجار الذي يسكن الغرفة الوحيدة في السطح ، أحتجت نجيبة في قوة وانفعال ·

ـ هذا غير ممكن ايها العزيز ان الحفلة خاصة للعائلات ، كيف تسوغ دعوى رجل أعزب ، أن في ذلك احراجاً للزوجات ·

فشعر انور كرة أخرى انه في سبيل جدال آخر يعز عليه ان يخرج منه مغلوباً ، فقد انتصرت نجيبة أول جولة حينما أوصته أن ينبه المدعويين بعدم اصطحاب الاولاد ، فاثار بطلبه هذا امتعاضاً لم تفلح في اخفائه الوجوه ، فأستشعر انور الأسف والخجل .

أجاب انور :

ولكن كيف يمكنك ياعزيزتي أن تنسي بمثل هذه السرعة ،الم أطلب اليه

اليه ثلاث مرات ان يصلح الخلل الذي اصاب كهرباء غرفتنا ؛ فلم يتوان عن حمل مفلاته وكلابته واسلاكه فيما كنت انا اتهيأ للذهاب الى عملي في النادي .

فأتسعت عينا نجيبة في انكار وردت على مزاعم زوجها .

ـ وأي فضل في هذا ، كافة الناس يتبادلون الخدمات في مناسباتها عن طيب خاطر دون أن يعقب ذلك دعوة الى الحفلات وزج العزاب مع زوجات المتزوجين

ـ ولكننا مدينون له ، ولولا أن يبادر الى اصلاح كهربائنا لامضيت ليلتك في الظلام الدامس .

ثم أطرق أنور لحظة ورفع رأسه فجأة وقد ارتسمت على محياه الدهشة وكأنما عثر على ابرة ضائعة وتابع يقول ـ انني لاستغرب ياعزيزتي فقد وقع الخلل في كل مرة حينما كنت اتهيأ للذهاب الى عملي ولا اذكر ان الخلل قد وقع في غيرهذا الوقت ، وكانت دائماً تأخذني الشفقة من ان اتركك في الظلام

لم تجد نجيبة اية اهمية لهذا التعليق فرفعت كتفيها في لا مبالاة وقالت .

ـ لم الدهشة ، قد تقع مصادفات أشد غرابة منها ولا يكترث لها الناس .

وعاد انور يؤكد على ضرورة دعوة الجار قائلا في اصرار

ـ انه جار شهم ونبيل وعالي الخلق ،التقي به احياناً على السلم وفي المجاز فيبادلني التحية في مودة وأبتسام دون أن يغفل عن الاستفسار عن صحتي .

فاذعنت نجيبة في آخر الامر قائلة في استسلام

ـ لايسعني أن أواصل اعتراضي فانت رجل تفهم وتقدر وترى الصواب دائماً فيما تقول ، وعليه ايها العزيز أفعل ما يروق لك ـ فأبتسم انور واستشعر الزهو قائلا في وداعة وكأنه قد اقنع طفلا على تجرع دوائه

ـ سوف أذهب اليه وأخبره بالدعوة كيما يكون مستعداً في المساء ·

وقام الى السلم الخشبي فارتقاه في اتزان محدثاً بقدميه وقعا متناسقاً مسموعاً ، فلقى جاره مكباً في مشغله يصلح مكواة كهربائية وقد تبعثرت حوله عشرات البراغي والاقراص، قال أنور :

جئت ادعوك لحفلتنا بمناسبة مرورسنة على زواجنا ، ستكون حفلة صغيرة تحضرها بعض العائلات من اصدقائنا ·

فحدق الجار في وجه انور وكأنما كلمة عائلات اثارت انتباهه قال ·

ـ تقبل اعتذاري ،هذا أمر لايصح . انني رجل اعزب من غير عائلة ولا ارى مسوغاً ان أحضر الى حفلة تأتي اليها السيدات ·

فأكد انور ـ ولكنني أدعوك عن ثقة واطمئنان، وانك جار شهم وانسان نبيل وقد اصلحت كهرباءنا عدة مرات وتشكرك زوجتي غاية الشكر ·

فاعتذر الجار كرة أخرى ـ أصلحت الكهرباء عن واجب لا انتظاراً لترقب الدعوات .

ـ واكننا نصر على دعوتك ونريدك ان تكون معنا ·

ـ انك لتجعلني اخجل ياسيد أنور ولا يسعني ان أرفض دعوتك السخية .

ـ حسناً ضع في ذهنك منذ الآن ، الساعة السابعة مســـاء ، أطرق بابنا وخذ مجلسك ·

ـ شكراً جزيلاً سألبي الدعوة .

فعاد أنور أدراجه يغمره السروروالارتياح اذ وفق الى اقناع الجار بقبول الدعوة كما وفق من قبل الى اقناع زوجته بدعوة الجار .

لاحظت نجيبة متساءلة الا ترىمن الافضل ان يكون مجلسه جنب الحائط ونضع له الشراب والطعام والجرز على طاواة صغيرة مستقلة دون ان يتعب

قدميه بالانتقال الى المائدة الكبيرة ، ودون أن يحدث ما يساعد على حك كتفيه بجاراته من النساء •

فقبل انور هذه الملاحظة على مضض قائلاً في ضيق ونفاذ صبر .

ـ ما بالك ترتعدين من العزاب لهذا الحد أن أحدهم لم يفكر في التهامك . انه جار شهم ومع ذلك سوف أراقب دوران عينيه وعلى أي من الوجوه تستقران ـ وانتهى النقاش على هذا الوجه المضطرب حتى حلت الساعة السابعة وصار الضيوف يتوافدون تباعاً محتلين الآرائك المريحة المبطنة محتضنين المائدة الكبيرة الحافلة بالشراب والطعام والجرز ، بينما وفد الجار في سكينة وعلى استحياء فأقتعد كرسياً صغيراً من غير مساند مكتفياً بالقدر الضئيل من الشراب والطعام والجرز المخصص له دون ان يبدو عليه أي اكتراث لهذا التدبير الشاذ ، وهذا ما جعل انور يقر أكثر من ذي قبل بصواب آراء زوجته وحصافتها البالغة ، كما ان الجار لم يشتبك ما أي من النساء بحديث ، بل حاول تجنبهن ومبادلة التعليقات المستملحة العابرة مع الرجال وحدهم واذا ما أحتسوا كأسين من الشراب خرجت نجيبة الى المطبخ لتعد الكبة وهي اكلة الحفلة الرئيسية فاذا مصابيح البيت تطفأ جميعاً ، فجمد المدعوون فوق كراسيهم تحيط بهم ظلمة دامسة لا تتبين الاعين غير جمرات السكائر المتقدة على الافواه ، صاحت نجيبة بانزعاج :

ـ البيت كله ، الخلل في التيار الرئيسي عند الباب الخارجي •

فلعن أنور الشيطان الذي لايروق له ازعاج الناس الا في أصفى ساعاتهم وأستدار وسأل الجار في لطف بالغ ـ هل يمكن أصلاحه ، انا نرجو معونتك .

أجاب في بداهة ـ من غير ريب سوف أستعيد الضوء في دقائق •

فشعل عود ثقاب ومضى في اتجاه الباب الخارجي فيما أقبلت نجيبة من المطبخ وبحثت عن ذبالة شمعة في جرارتها واشعلتها فانسفح ضوئها الشاحب

فى ارجاء الغرفة وعاد المدعوون يرتشفون كؤوسهم ويزدردون الطعام دون أن يضايقهم الظلام .

قالت نجيبة فى أشفاق ـ كيف يمكنه ان يعمل في الظلام ، يجب ان يحمل احدنا الشمعة اليه ـ فضحك أنور فيما هو يتم ارتشاف كأسه الثالثة ٠

ـ تفضلي خذى الشمعة واضيئي له ، لن يقف احد في سبيلك ٠

فاجابت نجيبة ـ طبعاً قد تقع اصابعه على السلك التالف فيصيبه الاذى ٠

وقامت الى الشمعة في حمية ومضت بها نحو الباب ٠

مضت نحو خمس دقائق ولم يعد الضوء كما لم يتناه لاحد أي صوت من الباب الخارجي ٠

فضجر انور وقال ـ سأرى بنفسي ما الذي يفعلانه كل هذا الوقت ٠

تسلل في الظلام بتؤدة وحذر واقترب نحو الباب فلم يلق لضوء الشمعة اي أثر انما كان الجار وزوجته يتبادلان القبل ويتهامسان، وسمع الجار يغمغم في أذن زوجته ٠

ما كان أبرعك ايتها العزيزة ولكنك مع ذلك لم تقطعي الاسلاك المطلوبة .

فتأوهت نجيبة ـ غلبني الشوق وكنت التهمك بنظراتي وابحث عن فرصة سريعة ولم يكن لي ثمة وقت للتفكير ٠

فسعل انور بشدة وارتد الى الغرفة هاتفاً في غيظ ٠

ـ نجيبة أوقدي الشمعة علام وقوفك في الظلام

وعاد الى المدعوين وهو يغمغم ٠

ـ جار شهم حقاً .

ليلة مزعجة

كانت سفرتي الى « م » فاشلة فشلاً ذريعاً ، والسبب هو انني كنت آمل زيارة صديقي ابو ظافر . وهو صديق قديم طالما تراسلنا زمناً طويلاً ثم انقطعت رسائله فأحببت ان افاجئه بزيارتي تلك ؛ ولكن ما وقع هو غياب صديقي عن منزله مع زوجته وأولاده ، فقد ذهب هو الآخر يلتمس مكاناً يسري فيه عن نفسه ، هكذا وقعت الصدمة الاولى . ثم انني اخبرت ان « م » ذات هواء عليل ومسرات كثيرة ، فكانت اكذوبة لا مثيل لها ، فقد تصببت طيلة النهار عرقاً وانتاشتني جحافل كثيفة من الذباب ؛ وتحطمت ساقاي تعباً في ازقة معوجة مخددة بائسة منتزع منها الجمال انتزاعاً ، وأصطدمت باناس غرباء منكسي الرأس كأنهم الدمى، فعانيت خلال ذلك اليوم من الضجر مالم اعنه في سنين . تصور نفسك في بلدة لايعرفك احد ولا تعرف احداً ولم تجد النهار بطوله أنساناً يمكن ان تبادله التحية دون ان يستغربها ، و يتصرف الناس جميعاً وكأنهم غير منتبهين اليك ، كما لو انك فضلة لا لزوم لها . وهكذا اصطدمت صدمة ثانية ادمي من الاولى ، فظللت أعض شفتي ندم وأقذف شتائم لا ادري على من . وفي مساء ذلك اليوم المشؤوم انطلقت اتصيد سيارة تعود بي الى بلدتي فلم أوفق ؛ فتفاقم غيظي واحمرت عيناي وجف حلقي فقلت أخاطب نفسي ـ « أما خمر وأما أمر » فعرجت على حانة متواضعة ضيقة أشبه بالمجاز الطويل ، فاتجهت نحو البار وجلست قبالة الساقي وإرتشفت كأسين كبيرين من الخمور السريعة الأسكار ، فثملت بعض الشيء ورحت أمعن النظر فى

الشاربين كانوا مثلهم في الشارع مجتمعين في مكان واحد وقد تركوا شخصي الغريب مستوحشاً ضجراً فالقيت بنفسي على الساقي وجذبت ياقة سترته وصحت به — انت اسمع لقد جئت بلدتكم اليوم ولم يسرني أي شيء فيها . هيا كلمني وأبحث لي عن سيارة ، انتم ملاعين .

ابتسم الساقي ابتسامة لطيفة مؤدبة توذن بتمرسه فى معاملة السكارى
ـ حسناً أيها الصديق الزائر ساجاذبك أطراف الحديث قدر ماتشتهى عندما لا أجد مايشغل يدي ـ وانصرف عني الى عمله مواصلاً ابتسامته الثعلبية الباردة ، فاخرجت محفظة نقودي وأفرغت اوراقها في يدي مبدياً براعة مقصودة في كشف ثروتي لاولئك الملاعين ، فرمقني جميعهم بمؤخر اعينهم وهمهموا بازدراء ، فسررت للانتصار الذى أحرزته بالمحفظة ورحت اتسكع باحثاعن سيارة فلم أجد من يسعفني بسيارته وبدا لي ان قضاء ليلة في هذا المكان سيفقدني البعض من عقلي لا محالة . وفي نهاية المطاف عثرت على سيارة نفط كبيرة قد جلس وراء عجلة قيادتها رجل في وسط العمر حلو الوجه مشرق الابتسامة له عينان عميقتا السواد تتحركان في خفة لا تخلو من مكر، وحسبت انني رأيت هذا الوجه فى الحانة ، الا انه كذب زعمي وأكد أنه قدقدم فى التو من خارج البلدة . فقصصت عليه ضجري وانزعاجي في هذه البلدة اللعينة فاطلق ضحكة مفعمة مرحا جعلتني احسد الرجل على انبساط اعصابه قال :

ـ انك محظوظ . منذ اللحظة ستكون معى فى سيارتى هذه . انها مركبة من مركبات الملوك تتخطر على الطريق كالعروس المدللة أوكالزباء تدخل عاصمتها تدمر . ثم مالنا والسرعة ، انما يطلبها الحكام والدبلوماسيون . أما نحن فلا نريدها ؛ تربك اعمالنا وتزعجنا وتوقعنا فى البلوى وتجعل بعضنا يضايق بعضاً اننا لانريدها .

فكدت أحتضنه وأقبله في الحال فزايلني الكرب وانتعشت ، قلت لنفسي لقد عثرت على رفيق انيس ، استطرد الرجل ـ لن أعود بك القهقري الى بلدتك بل نتجه الى بلدتي انا ، كيما اريك محاسنها وجنانها وتنعم بنسيمها الربيعي ـ قال ذلك بصدق وأخلاص حقيقيين وأستطرد ـ لاتضع وقتك في غير طائل . ان معى شيئاً منعشاً يلعب بالرؤوس لعباً رفيقاً ومعي طعام ، ولن اطالبك بأجر الطريق .

أرتخت أرادتي تجاه هذه الضيافة البالغة ، فجلست الى جانبه وتحركت الماكنة في قرقعة وصخب ونفثت الدخان واثارت الغبار ثم دارت الدواليب في انتفاضات قوية متوالية ثم استقامت تمشي في غرغرة موصولة غير عابئة بمئات السيارات تبوق من ورائها وتتقدمها ماضية في سرعة السهم مخلفة اعمدة من الغبار تنفذ الينا وترش رؤوسنا وملابسنا

وطفق يغني . كان صوته مصدوعاًمن غير حلاوة البتة الا انه مفعم بلا مبالاة مفرطة في الاستهانة بالمقادير ،وكلما كف عن الغناء عمدالى قنينه فتجرع منها جرعة ثقيلة ووضعها في يدي قائلا « خذ نصيبك العادل ولا تكترث لايما أمر » وهو لايفتأ يتجشأ ويتلمظ .

والحق انني كنت محاذراً ان انقص خمرته خشية ان احرمه من نشوة كاملة ولذا فقدثمل الرجل وكنت انا فيحال واعية رغم تظاهري المبالغ في السكر ؛ نظرت الى ساعتي وسألته ـ كم تبقى امامنا من الطريق اجاب في بداهة ـ اننا قد بلغنا منتصفه ـ وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشر ويلزمنا لبلوغ البلدة ثلاث ساعات أخر ،اذن سنكون هناك في الساعةالثانية بعدمنتصف الليل وحتما ستكون الفنادق موصدة الابواب والبلدة هاجعة وليس من يأويني في ليلتي تلك ، ففكرتفي الصعوبات التي تنتظرني،فعاودني الضيق واطرقت مفكراً اين

فسألني مستغرباً ـ « ما بالك صمت ، علك غير مسرور من صحبتي هــــذه ؟»
فأجبت ـ كلا انما أفكر اين سامضي ليلتي هذه ، أننا سنبلغ المدينة في الثانية
ولن أجد فندقاً مفتوح الابواب ـ فضحك ضحكة مبحوحـــة حتى غص بها
ودمعت عيناه «هذا الذي يزعجك .الفندق;لتذهب الفنادق إلى الجحيم وعسى
الله إلا يريك وجهها بعد اليوم ، ستكون الليلة معي فيمنزلي ، هل استرحت ؟ »
فتطلعت إليه مقيسا قوة وعده ثم خاطبت نفسي - ترى أي منزل يملك رجل
مثله ، أنه لا يكاد يجد سترة لائقة ، وكل ما على جسده من خرق هي مائسة
مهترئة ، غير انني ارتحت للحل ولم أجد فيه بأساً كبيراً . ستكون له عائـــلة
وأولاد فادعيهم وسامرهم،ولسوف اهبهم جميعاً هبات مناسبة افرحهم بها .

استقبلتنا المدينة بوجه موحش حزين . كانت صافرات العسس تتناهى
إلينا من مكان بعيد وكلاب تعوى في الساحات العامة وظلام دامـــس في
الخرائب المهجورة واشباح مريبة مهلهلة تسعى في تلصص وعربات مقلوبة ملقاة
على الطريق واضواء سيارات تلتمع ثم تخبو كأنها اشارات البرق الضوئية. قال
السائق « ان منزلي في ظاهر البلدة . سأضع السيارة في الكاراج وننطلق مشيا
على الاقدام انها ليلة عظيمة وكأننا بطلان من ابطال الاساطير » ، وقد قـاد
سيارته في طرقات البلدة في مهارة وخفة وولج بها الكاراج . فخرج لنا رجل
يحمل فانوسا لم اتبين وجهه ثم تواصل الحديث بينهما مسموعا تارة ومهموسا
أخري وأخيرا خرجنا ماشيين . كانت الظلمة محلولكة والطرق في غاية الوحشة
وعواء الكلاب يتفاقم شناعة . فاختلست النظر الى صاحبي وهو على الارض
فلقيته طويلا حسن القوام مفتول الذراعين يترنح في عزم وقوة كبطل من
ابطال الاساطير كما وصف نفسه . كان يقذف حجارة الطريق بمقدم
حذائه وينشد بصوته الابح ـ جئنا نفتح الطريق ونزيل العقبات ـ سألتـــه

مستوضحاً ـ هي لك زوجة وأولاد ؟ قال فخوراً ـ نعم زوجة ، واطفال ثلاثة لشد ما اتوق لاحتضانهم . سالقاهم نائمين ولكنني سـاعمد الى ايقاظهم ومداعبتهم . ولا اكتمك سرا انني انتظر مولوداً آخر .

أطمأن قلبي وأحببت الرجـل حباً خالصاً وصرت اتشوف المنزل بصبر فارغ . ومن نحو خمسين خطوة اشار الى منزله قائلا ـ أنظر هناك المصباح يتلألأ.أنهم يتوقعون عودتي ، أه ما اسعدني ، عشرة ايام قد مضت منذ أن ودعتهم ، وها انني اعود سليما قويا مرة أخرى ـ وخبط الارض بقدمه وهز ذراعيه في عنف وأنشد ـ جئنا نفتح الطريق ونزيل العقبات ـ

كانت زوجته هي التي تولت فتح البـاب . رفعت المزلاج وازاحت العارضه الخشبية الثقيلة وادارت في الثقب مفتاحا مرنا فبرزت عند الاطار امرأة مثل زوجها ، ضخمة العظام فارعة مصقولة يتدلى امامها بطن هائل منتفخ كأنه كوز الماء . تبينت وجهها على ضوء المصباح الباهت . كان مستديرا اسمر كامد اللون مطوقاً بشعر اسود حالك ينتهي عند صدغيها بخصلتين رفيعتين معقوفتين كراقصات الاسبان . تشكت المرأة في ألم ـ اواه حانت الساعة وجاءني المخاض .

صاح زوجها ـ « حسناً دعي هذا الآن ، لقد جاء معي سيد محترم هو ضيفنا » وقادني بيده القوية نحوها فافسحت لي ومضت الى باحة البيت ووقفت عن كثب تتأملني في غير لياقة، ثم قالت شيئا ودلفت الى غرفتها. قال صاحبي « تفضل هذه غرفتك . لا تكترث لسلوكها أنها مريضة وقد تلد الليلة ، سأقوم برعايتك كما ينبغي . تفضل اخلع ملابسك واسترح ، ستجد فراشا ومنضدة ومرآة ومشط ولوازم أخرى . »

كنت في غاية التعب والانهاك فخلعت ملابسي وتقدمت الى المرآة

اطالع وجهي فهالني الغبار الذي يعلو رأسي ووساخة سترتي وذبول عيني ، وأتجهت الى الســـرير واستلقيت عليه ورحت في سبات . أحسب أن ساعتين تصرمتا حينما أفقت أستفاقة واهنة وبلغ اذني أنين المرأة الحبلى في الغرفة المجاورة ، ثم خالطه حديث مهموس كانه مشاورة بين لصوص،فأصخت السمع . قال السائق لزوجته منتهراً اياها ـ ما اســوأ حظنا أتيت به وانت تئنين وترسلين هذا الفحيح المزعج . كان يجب أن تؤجلي ولادتك لوقت اخر ـ فأجابت هي من خلال أهاتها ـ ما الذي كان علي ان افعله لقـــد أحكمت صيدك في ليلة مخاضي ٠٠٠ أه الألم انني لاكاد اتفتت ٠

فنهرها في عنف ـ هذا هراء انفقت عليه ديناراً واحدا ولم اتقاضاه اجر الطريق وضحيت بخمرتي وطعامي من أجل أن أحمله على المجيء الى بيتنا ولم يتبق في جيبي حتى درهم واحد ٠ كيف يمكن أن تشرق شمس الغـــد واتركه يفلت بسلام ـ سألت زوجته ـ هل انت واثق ان معه مقداراً مغرياً من المـال ؟ اكد بعزم ـ من غير ذرة شك ، أرانا محفظته في الحانة وكانت ملأى وجذب الساقي من ياقة سترته وعربد ببعض الكلمات . انه في حاجـــة الى درس صغير واستلاب محفظته وانفاق ما بها على الوليد الجديد واقامة حفـــلة والظهور امام الناس بالمظهر اللائق ٠

تنهدت المرأة في اسى مثل حصان متعب يعدو تحت شمس محرقة ـ هل سأقاوم آلامي أ يمكنني احتمالها لست ادري ٠

اما انا فقد ادركت الحيلة المبيتة ، وتراءى لي الفخ العظيم الذي نصبه ذلك السائق الاسطوري الذي جاء يفتح الطريق ويزيل العقبات ٠

قلت اخاطب نفسي ـ سأتدبر الامر ، انها ليست حالة غياب صديقي ابو ظافر وليست مسألة تصبي عرقا في بلدة غريبة بين اناس غرباء ، انما هي مسألة

اخرى ، اسلم حالاتها ان اواجه هذا الوحش الكاسر وأنجو من بطشه؛لذا فقد قمت الى المشجب في غاية الحذر ووضعت على ملابسي وعــــدت قاعدا فوق السرير أكافح سلطان النوم كفاحا مستميتا جاهدا ان تبقى عيناي مفتوحتين .

وفجأة انفجرت المرأة في الاعوال وكانما احد يغرز دبابيس في جسدها . كان اعوالاً حيوانيا كانه ينطلق من شدقي بقرة او فرس شق حجب السكون فاستيقظ الاطفال وتباكوا والتمع مصباح في مكان ما . صاحت المرأة ـ استدع قابلة أجد أن ولادتي مخطرة ـ فعنفها زوجها في فظاظة بالغة الشدة ـ « من اين لي المـال ايتها الحمقاء ، انفقت عليه كل ما املك ، اهدئي قليلاً ريثما ينـام فاسلبه ماله والقي به على قارعة الطريق ، وعاد الصمت يخيم من جديد ، ولكنه صمت مصطنع بدا لي اوحش من الضجيج وادعى الى ايقاع الفزع في قلبي كان ألانين يتردد حبيسا مكضوماً ، فنظرت الى ساعتي فوجدتها قد بلغت الرابعة . همس الزوج ـ اسمعي ايتها البلهاء سأخرج إليه ، سيان عندي ان كان مستيقظا ام نائما فلم يبق للفجر الا ساعة او بعض ساعة ، ولست انـا مستعدا ان اتصرف كالبلهاء . يسافر في الصباح فأحييه واقدم إليه الفطور واودعه بالتبريكات . هذه فرصتي الاخيرة .

تطاولت اللحظات الرهيبة وكانها اعوام ، وانا مستوفز فوق السرير انتظر اللحظة الحاسمة . لم يعد يسمع من الزوجة ايما صوت ، ولا شك ان الالم قد خنق صيحاتها . ونهض في النهاية حانقا منضبا نافذ الصبر ، فضرب بكفه صحنا هشمه على الارض وتناهت الى ارتطامات اشياء معدنية ثقيلة ، اذ كان الشقي يبحث عن سكين ـ لقد دنت لحظة الخطر . فأطرقت افكر مليا ، وانـا بين السرير والباب . فأومضت في رأسي فكرة لم أبطيء في تحقيقهـا ، هي ان اكون محسناً بالاكراه واجنب نفسي الاصطدام والمخاشنة . فدفعت الباب

برفق ومضيت الى الباحة وانا اصطنع اللطف والابتسام ، ثم تقدمت نحو باب غرفته وطرقته طرقة واحدة فوجدته غيرموصدمن الداخل فدفعته ودخلت ؛ قلت وأنا اخرج له محفظتي - ايها الرفيق العزيز انك في عسر مالي بين . وفي حاجة الى معونة ، انني اهبك ما لدي من مال وارجو أن يكفيك - والقيت المحفظة فوق السرير عند قدمي زوجته ففتحت عينيها والقت علي نظرة متعبة .

ظل الاثنان صامتين لم تنبس شفتاهما بحرف واحد ، حتى انهما عجزا عن تقديم الشكر لي ولو من باب العادة ، فمضيت الى الباب الخارجي وازحت العارضة الخشبية وخرجت الى الشارع .

كان الفجر يتنفس وقد شرعت العصافير تزقزق عند قمم الاشجار ، والنسيم بارد رطب جفف حبات العرق التي تجمعت فوق جبيني

ثمن القبل

جلس السيد بهجت على مقعد مريح من مقاعد كازينو فخم يقع على شاطيء النهر . . وبهجت رجل اعزب رقيق العواطف في حدود الاربعين يدير متجراً مع شريكه نعيم زوج السيدة حياة الشابة اليافعة ذات الحسن الاخاذ ، كان الجو حاراً والهواء ساكنا كثير الوخامة وقد خلع معظم الجالسين سترهم والقوا بها على المقاعد الخالية غير ان الذي خفف من وطأة الحر ، النهر المنبسط في وداعة واستسلام امام الاعين كمرآة غير مجلوة ، تبدو فيه قطعات الارض المحسور عنها الماء كخدوش دامية حمراء، وكانت القوارب الصغيرة منهمكة في غدو ورواح دائمين مثقلة بالمتنزهين . وثمة دخان اسود وحطب متقد وسمك مفتوح البطن مصلوب على الاعواد . .

كانت عاصفة خفيفة تهب في مخ الرجل فليس عجيبا أن ابتسم مرة وعبس اخرى في نوبات تفكيره الحاد القلق . قال يخاطب نفسه :

-- غير ممكن الا تأتي لقد وعدتني في الصباح . .

اشعل لفافة تبغ خامسة ونفض رمادها في المنفضة التي امامه . كانت الاعقاب الاربعة تشكل ضربا من حرف (لا) .

فارتاع بهجت وحدق فيها مليا ثم خبطها بيده فتفرقت وخاطب نفسه كرة اخرى

ـ غير ممكن .. غير ممكن

كانت هذه الكازينو قد امست عش غرامهفي الايام الاخيرة ، فهي فضلا عن انعزالها يمكن ان ترتادها النساء دون حرج ، كانت حياة تأتي في كل مرة متلفعة بعباءة سوداء مسدولة من اعلى بقبضة يدها الواحدة حيث تطل من هناك عيناها الدعجاوان الشديدتا اللمعان يحميهما ويجملهما حاجبان مقوسان جميلان تحت جبين متألق كقطعة من رخام ابيض .

واخيراً لاح شبحها الصاعد من ادنى الشارع . . قالت في تضايق وبرم :

ـ لشد ما ضقت ذرعاً بهذه المواعيد . .

والقت بجسدها الصغير الناعم على المقعد المجاور مواجهة النهر بعد ان احكمت صك وجهها ضد اعين المتطفلين ، فأطفأ بهجت سيكارته الخامسة واجاب في تعب وضجر . . .

- انا ايضاً مللت مثلك وضقت ذرعاً ، انت تخشين كل انسان ..

وتحسبين كل مخلوق تقع انظاره عليك هو صديق زوجك وسينقل له عنك اسوأ الأخبار ،وما وظيفتي اناغير تسكين روعك وتقوية معنوياتك وتشجيعك. انك تفسدين بقلقك هذا أهنأ ساعاتي .. وصمت لحظة واحدة ريثما اكتسى محياه بطابع المسكنة والتوسل واسترسل ـ هذا ليس حال ياحياتي فكري في مشروعنا مليا .. لا تطيلي عذابي. هذا ظلم .

تنهدت هي وسط موجة من الحسرات وتساءلت في حيرة .. ما الذي ينبغي على أن أفعله ..

فرد عليها بهجت بصوت شاك ـ نعيد الاسطوانة مرة اخرى يا عزيزتي لقد افهمتك ما اريد .. فقدم لها سيكارة اخذتها بين اناملها المدببة الاظفار وادنت شفتيهانحو لهب كبريته فيما هو يتطلع باعجاب الى بشرتها الوردية

المشربة باللون البنفسجي. قالت مي: ليس هذا امر سهل دعني افكر ..

كان يبدو انها تدير المسألة في ذهنها بكثير من القلق ..

فمد بهجت يده الى جيب سترته الداخلي واخرج ورقة مطواة بعناية قائلا هذه رسالتى اليه ساتلوها عليك . .

ابتسمت ابتسامة متفكرة ولم يبـــدو على وجهها الدهش قالت اقرأ انى مستمعة اليك :

حضرة شريكي العزيز

لقد شاء الحظ ان اقع في غرام زوجتك واهيم بها هياما . قد تلومنى وتصمني باخس الصفات فاني غير مبال وغير قادر ان اتخذ غير هذا السبيل . . ولذا فاننى ساهرب مع من احب الى جهة مجهولة . اما حصتى معك في المتجر وهى النصف فاننى متنازل لك عنها ؛والمتجر باجمعه هو لك منـــــذ هذه اللحظة . فارجو أن تعفو عني وتتحمل الصدمة بصبر جميل .

« هذه رسالة غير نافعـــــة » احتجت حيـاة والتمعت عيناهـا ببريق غاضب ثم اردفت ـما الذي يدعوك الى كل هذا الكلام الطويل . كان الافضل أن يكتب له تنازلك عن الحصة ـ أما هروبنا فأمر سيدركه فيما بعد . .

لم يرتح بهجت لما ذهبت اليه فرماها بنظرة مرتابة قائلا في حيرة ـ ما المانع انه سيربط تنازلي عن الحصة بهروبي معك . .

ردت حياة وقد اكتسب سيماها قناعة تامة بما تقول ــ سيربط الامرين من غير بد ولكن لم الجهر له بهذا الشكل المثير الطاعن؛ لكرامته اننا نفرح قلبه بهذا الثروة التي ستكون عزاؤه ؛وعندما يعلم انني قد اختفيت فلن يحزن كثيرا. لم يعجبه منطقها ولكنه في سبيل ارضائها تساءل في استغراب ـ انك تفكرين فيه كما لو انه قد اسعدك واراحك . .

تنهدت حياة . كلا انه لم يسعدني ولم يحزني .. لقد سطا علي كما يسطو الصقر على فرخة امنة غير انني لا املك قلبا شجاعا ـ ثم صمتت ولوت راسها في ياس ، وما عتمت ان عادت تقول متوسلة ـ اكتب شيئا اخر ، ارفع من رسالتك قصة حبنا ، عدني ان تفعل انني اسالك معروفا .. فوعدها بهجت ان يستجيب لطلبها وهو يرنو اليها باشفاق كبير ..

نهضا اخيرا وشرعا يلقيان خطواتهما المتمهلة متجهين صوب رصيف النهر فاستثارت الهواجس في صدر حياة من ان يراهما احد ويوصل الخبر الى علم زوجها ، فاضطر الى كراء عربة ، دفع حياة الى داخلها ثم جلس الى جوارها شادا كتفه الى كتفها .. مغرقا نصف جسده بسواد عباءتها المفروشة ولا يني يتنشق العطر المزكم المنبعث من ثيابها الانيقة .

قال بهجت ـ اننا في الحب منذ سنة واحدة لقد تعلقت بك يا حياتي من النظرة الاولى وقلت لنفسي هذه المرأة من نصيبي .. ثم زوجك اى شيء هو هذا المتخشب العادم لكل جاذبية ، انه اشبه بحجر ثقيل لا شكل له ، كل مهمته ان يكون مجرد ماكنة حاسبة .

تنهدت هى وران على وجهها الاكتئاب ..

ـ اواه انني قلقة لا استطيع ان اتجاهل فظاعة العمل الذى انا مقدمة عليه ، قد تميته الصدمة ، وقد تنقلب حياته راسا على عقب . ليت لي قلب نسر لكنت عندئذ غير مبالية ان اخلف ورائي حياة راكدة بلا طعم ..

ـ ارجوك بهجت اكتب رسالة اخرى دعني اطلع عليها ، تنازل عن حصتك فقط هذا ماينبغي ان توضحه له ..

كانت الظلمة تتكاثف والطريق يزداد اقفارا كلما اوغلت العربة في المسير سألت حياة ـ الم يحن لنا ان نعود ؟ اننا قد اضعنا وقتا طويلا واخشى ان يكون

في البيت فيتساءل عني ، افكر ان اخلص له في ايامي الاخيرة معه واعامله بلطف

رفع بهجت كفا ثقيلا والقى به على كتفها وهزها في رفق فاستدار نحوه راسها الجميل والتمعت عيناها .. فتحددت في الظلمة معالم شفتيها النضرتين المصبغتين بلون الشفق الوردى فهوى عليهما تقبيلا وهو يهمس بصوت حالم مرتعش ـ لن اشبع منهما بل لن اشبع منك ..

كانت هذة القبلات هي صكوك نجاحاته مع هذه المرأة الشابه زوجة شريكه ، لم تمتنع عليه مرة بل تسلم شفتيها بيسر كشيء زهيد من غير ذاتها ، وعند ابواب المدينة ودعته على عجل وتسللت في زحمة الناس فتنفس بهجت انفاسا عميقة دافعا شهيقه الى قعر رئتيه ، قال في ذات نفسه ـ سامتلكها بعد بضعة ايام ، ، ليس فقط شفتيها بل جسدها كله ..

بعد بضعة ايام حل ميعاده الجديد معها ، انهمك طوال سحابة النهار باعمال المتجر فيما كان شريكه يراجع الحسابات ويحرر بعض الرسائل ويقوم بتعنيف بعض المستخدمين وقد كتب على عجل رسالة ذكر فيها رغبته في التنازل عن الحصة وانه مسافر الى جهة مجهولة حيث يامل ان يصيب ثروة كبيرة .

وفي المساء انطلق الكازينو وجلس الى المنضدة نفسها وشرع يدخن في اسراف ملقيا اعقاب السكاير في المنفضة ..

كانت الرسالة في جيبه ، قال يحدث نفسه ـ انها منهمكة اللحظة بحزم حقيبتها وصر حليها ..

وكعادتها في كل مرة اقبلت من ادنى الشارع وهي تخب بسرعة وانطباعة خوف وقلق مرتسمة على وجهها ، قالت بسرعة وهي تجفف حبات العرق المتفصدة عند صدغيها ، هل اعددت الرسالة ؟ اجاب كل شيء جاهز وقد حجزت مقعدين في الطائرة التي تقلع في فجر الغد كما انني حزمت امتعتي

ـ حسنا أقرأ ما الذي كتبته. ثم جلست الى جانبه وشرعت تدخن بشراهة ووجهها قاتم رصين ، فض بهجت الرسالة وقرأ لها ما يلي :

شريكي العزيز نعيم ..

احاطت بي في الاونة الاخيرة مشاغل جمة اقتضت سفري الى جهة بعيدة واننى آمل ان اصيب ثروة كبيرة تجعلنى غنيا ، فاعترافا مني بجميلك فاننى متنازل لك عن حصتي في المتجر فهو منذ اللحظة ملكك جميعا وارجو الا تتعب نفسك في التنقيب عني فاننى ساكون في هذه الساعة مختفيا تماما في مكان لا يعلمه احد ..

تهللت اساريرها فرحا وتمتمت ـ هذا شيء جميل . هكذا . ما الذى يدعوك الى سرد قصة حبنا اننا لن نعمل غير اثارة القيل والقال واذلال الرجل وازعاجه . ثم واصلت كلامها مستفهمة ـ ما الذي ستفعله بهذه الرسالة ؟

اوضح لها بهجت انه سيمكث الليلة في المتجر بعد انصراف زوجها والمستخدمين فيضع الرسالة في مكان بارز ويقفل الابواب ويحمل المفاتيح اليه فاقرته حياة على خطته وهتفت بفرح ـ خطة محكمة . وانا الاخرى ساحزم امتعتي واتسلل فجرا من الفراش والحق بك في المطار .

وافترقا على عجل وهما لايفتآن يتحاوران ويتواصيان ، هي تشدد ، احمل المفاتيح الى البيت ، ضع الرسالة في مكان بارز . وهو يشدد ، احزمى متاعك صرى حليك ، في الرابعة تماما تقلع الطائرة استاجري تاكسى .. ثم مدت اليه شفتيها فاختطفهما بفمه الكبير وكواهما بحرارة قبلاته اللاهبة ..

مكث بهجت ذلك المساء في المتجر بعد انصراف شريكه والمستخدمين وحالما بلغت الساعة الثامنة شرع ينفذ خطته . اخرج الرسالة من جيبه وغلفها بغلاف كبير وكتب فوقها بحروف بارزة ـ الى شريكي العزيز نعيم ـ وابتسم

ابتسامة باهتة لكلمة العزيز الا انه لم يذهب بعيدا في تفسير هذه الابتسامة . ثم حمل الرسالة ووضعها فوق مكتب شريكه جلية للعيان ثم القى نظرة وداعية على رفوف المخزن وصناديقه واطفأ الانوار واقفل الابواب إقفالا محكما وعبأ المفاتيح فى جيب سترته .. وفي الطريق استشعر خفقانا في قلبه وانه ليس في وضع سوى ، وان من المستحيل اقناع نفسه بجدوى هذه المحاولة ، والحقيقة انها لم تعد هى نفسه بل نفس اخرى هازئة خبيثة تسخر منه طوال الطريق . . وعند باب بيت شريكه تعاظم قلقه وفكر جديا ان ينكص على عقبيه ولكنه لم يفعل . وكانت حياة هي تلك النفس الهازئة الخبيثه التي سخرت منه طوال الطريق. كانت تداعب زوجها بكل بساطة وتتغنج وتروى قصة مسلية عن الجيران ، رمقت بهجت بنظرة متحدية اثارت بها كوامن غيرته ، قال يحدث زوجها :

ــ اليك المفاتيح . سيشغلنى في الصباح شاغل ولن اكون في المتجر حتى الظهر

ــ ولما هم ببراح الدار القى عليها نظرة مستعرضة وتمتم ـ يالها من ممثلة بارعة ، قبل نحو ساعتين تراخت بين ذراعي ومنحتنى قبلة .. على اية حال انها تمضى اخر ليلة مع هذا الزوج ذي الوجه المتجهم البليد ..

وكانت ليلة ليلاء من ليالي امرىء القيس تطاولت ساعاتها ونبا بالعاشق الرقاد ، ظل يتقلب في فراشه منصتا لدقات الساعة ، وقبل ان تبلغ الرابعة كان في المطار . وجد المسافرين يتهيئون والحمالين قد شرعوا في نقل الحقائب ولم يكن لحياة اثر ، ظلت عيناه متسمرتين على البوابة الكبرى حتى طفق الركاب يرتقون السلم ويحتلون مقاعدهم ، فغلب على بهجت الانفعال وصاح في توسل

ــ انتظروا قليلا ان مسافرة واحدة لم تحضر بعد .

وبغتة برز رجل عند المدرج ونادى بصوت جهير ، السـيد بهجت السيد بهجت نداء على التلفون ، فقفز كدمية يحركها نابض ، تناول السماعة وهو

مرتجف ، كان صوت حياة ولكنه صادر بنبرات غريبة كل الغرابة كأنه فحيح افعى قالت ـ لاتنتظر طويلا رافقتك السلامة استلم نعيم الرسالة ليلة امس وفهم مضمونها وامرني ان ابلغك شكره الجزيل ، ـ صاح بهجت بهلع ـ وانت ، وانت لم لا تأتين لقد ضحيت بشيء كثير من اجلك ـ .

اجابت في حزم وصرامة ـ كانت تضحيتك ثمنا للقبل ـ واغلقت الخط .

وقد سافر بهجت فعلا ولم تقع عيناه على حياة مرة اخرى ..

المخدوع

كنا كاتبين فقط نقوم بمسك حسابات شركة تنتج الصابون ، وهي شركة ذائعة الصيت تبذخ في كل شيء حتى في تكديس عمل عشرين كاتبا على كاتبين اثنين ، ولذا فلم يكن لاي منا متسع لحك رأسه كما يقولون . .

من المألوف في ايامنا هذه بعد ان شاع الفقر حتى غدا مودة العصر ان يلقى المرء في مكتب كل شركة او دائرة حكومية رجلا من المتقاعدين ضعيف البصر اشيب مدمنا على السكر والتدخين ، فمثل هذا الرجل يجتزىء براتب ضئيل وبذلة تقادم عليها العهد ويجتزيء ايضا بموضوع واحد يظل يتلوه ويعيده حتى يتقيح في اذهان سامعيه .

كان زميلي على هذه الشاكلة . رجل وقور قد خلف وراءه الاربعين منذ زمن ومضى يتحكك بجدران الخمسين ، لا يشكو طولا ولا قصرا . دقيق الانف واسع العينين ذا جبين مرتفع تبين غضونه حين يفكر او يرفع حاجبيه ، انه ليحتفظ حتى في سنه هذه بوسامة محببة ومنظر جميل واحسب لو انه احسن هندامه واسعفه جيبه للولوج الى مخزن حسو او سواه ونال ربطة وردية وقميصا من حرير وبدلة من جيد القماش لكان في مهابته كأي رجل ميسور الحال ، غير انه يشغل في ملاك الشركة وظيفة محاسب . عن يساره خزانة حمراء فولاذية وامامه سجلات وقوائم تتوجها عويناته ، فلا يعمل عملا طوال يومه قدرمايضع

هذه العوينات ويرفعها ، فهي بين هابطة الى المنضدة وصاعدة الى انفه وليس من يدرى علام يفعل هذا فهو ان لزمته حاجة وضعها وان زهد فيها تركها وانصرف عنها .

حديثه المعاد هو حديث الحب ، وارجو ان لايدهش القارىء الكريم فأن كان الفقر مودة العصر فلم لا يكون الحب كذلك ، فللرجل آنسة كريمة شغفته حباً وسلبت عقله الحكيم ووقاره المهاب .. اتخمني من حديث هذه الانسة ، كان يلتقيها في الصباح وهى غادية الى السوق لتبتاع خضرا ولحما بعلاقة ذات عروة طويلة تناسب طولها ورشاقتها وقد انتعلت خفين واطئين يضمان في شوق قدميها الصغيرين الجميلين وعليها ثوب متسع تضيع في ثنياته مفاتنها الخلابة ، واحيانايصطحبها في مسيرة طويلة خارج المدينة تستغرق ساعة أو بعض الساعة يتجاذبان حديث الهوى ويتطارحان الغرام ويطفح سرورا يوم قبض الراتب حيث يقول لن انفق فلسا واحدا حتى تاتيني نوال فافتح لها محفظتي واسالها هيا نوال ، خذى حاجتك فتاخذ ما تشاء وكما يحلو لها .

كنت اقول ان كل هذا حديث خرافة فاية انسة في العشرين تغرم بشيخ في الخمسين وهى على مثل تلك الوسامة ، ولكن ذات يوم صدقت اقواله فقد برزت نوال فعلا في المكتب . كانت سمراء حنطية اللون نحيفة في متانة ذات شخصية آسرة ، في عينيها وانفها وحاجبيها معاقل جاذبية لا تقاوم ، قد اصطحبت معها صبيا اخرق ضخم العظام بين البلادة يتمتم بلسان متعثر ، تكسوه سترة بالية يأبى ان يضعها على كتفيه بائع نفط وسروال وسخ قصير كسؤال اولئك المكلفين بغسل السيارات من اطيان الشتاء قالت :

ـ هذا ابن عمى فرج ..

فتمتمت بثس ابن العم ثم استطردت تبسط قصدها من الزيارة بنبرة

قوية رصينة لها ايقاع موسيقي ساحر . .

قـالت ـ قدم من بلدة ـ ك ـ منذ اسـبوعين ولا عمل له ولا يحسن اية حرفة ارجو ان تتوسـط له لدى المدير . . ثم تدانت الى اذن صديقهـا وكانها تنوي تقبيله وهمست ـــ انه قروي جلف ولكن شاء القدر ان يجعل منه ابن عمي ، فانتفخ نوري ـ وهذا كان اسـمه ـ انشراحـا اذ ليس اثلج على قلب المحب الجـازع ولا اطيب لنفسـه ان يلقى من يحب يهزأ بغريمـه ويسـتخف به .

وقد ادى السيد نوري صنيعا عظيما ذلك اليوم، واعلنها حربا جهادية مقدسة في سبيل ذلك ابن العم الأخرق ، اندفع في حمية نحو غرفـة المدير وشرح لـه في بلاغـه مؤثرة الرزء العظيم والخطب الذي يحل بسـاحة شـاب يافع يعيل اسرة ، ان الانسانية لتحتم اسداء المعروف وعمل الخير ، وعاد بعد نحو ربع سـاعة فمثل دوره مع المدير من جديد ، انحنى نحوي و بسط الي ذراعيه وكأنه يستجديني ، انه في الحق ممثل بارع . ثم قال ان المدير طلب اليه ان يحضر بعد اســـبوع وسيعينه جابياً اي تحت امرة السيد نوري نفسه ، فـاستخف بقلبـــه الفرح اذ عبقت في غرفتنـا رائحـــة عطورهـاالنفـــاذة و لتمتع شعرهـا الأسود الحسن الترجيل وبلغ خبرها مسـامع عمال الشركة وسواقها فتوافدوا فرادى ومثنى وثلاثاً ملقين اسئلة سخيفة عن العمل مطالبين باجور لم يحن ميعادها دون ان تخفي عن احد نظراتهم الطويلة الفـاحصة الى وجه نوال كما لم يخف عن احد الزهو والتباهي الذين اصطنعهما الســـيد نوري في مواجهة حساده والمتطفلين على غرامه ، ثم غادرتنا نوال مصطحبة ابن عمها فشعيناها بالتجلة والأحترام وعدنا الى مقاعدنا مفكرين متاملين في محاسنها كما يحدث للناس عندما يفارقون شيئاً أثار اهتمامهم . لم يمنع الفقر السيد نوري من الأندفاع في ميدان السخاء والكرم فقد ابتاع لأبن عمها سروالاً وسترة وقميصاً وحذاء في سبيل تهيئته لملاقاة المدير

وقد اصدرت اليه نوال اوامر مشددة ان يكرم مثواه ويعمل على التلطيف من خشونته وان يصطحبه الى المقهى والسينما ، ولقاء ذلك تمتع السيد نورى باويقات غرام لذيذة منعشة سمحت له بالمزيد من المغازلة .. وفي السبت التالى اقبل ابن العم تكسوه عطايا السيد نورى من راسه الى اخمص قدميه ، فدبر له مقابلة مع المدير مع القاء خطاب مؤثر جديد ، ثم اعلن في الشركة خبر تعيينه جابيا ، فيا للفرح العظيم الذي استشعره نوري اذ يجد هذا العملاق الاخرق ينال خبزه بمساعيه هو وجهوده وانه قد شد اليه نوال شدا محكما بسبب هذا المعروف البالغ القيمة .

وسرعان ما صقل العمل من خلق ذلك القروي وكشف خراقته وبدت شخصيته ترق وتتلطف وظل السيد نورى وافر الثقة في غرام حبيبته مستيقنا من وفائها واخلاصها .

وذات يوم لمحت نوال وابن عمها يتنزهان على ضفة النهر في جهة نائية فوقفت ارقبهما على مبعده . كان الانسجام باديا عليهما ووجهاهما يطفحان بالسعادة والبشر ويداهما مشبوكتين . قلت في نفسي — ليهنأ السيد نوري باحلامه — ولقيتهما كرة اخرى في السينما يتهامسان ويتضاحكان ، لكم تبدل ذلك القروي الجلف انه ليحسن الهمس ويجيد النكتة . كنت اقول ان الخبر قد يبلغ قريبا مسامع السيد نوري وكنت اساله عن امر هذه الحبيبة وفي اي شأن هى اليوم . فكان يترفق بها فيقول في شفقة بينة . انها مريضة من وقت يسير وقد كفت عن الخروج للتسوق او التنزه معه .

وذات يوم دق النفير في الشركة كما يدق قبل اعلان الهجوم . اعلن زواج نوال بابن عمها فرج وقدمت دعوى للسيد نوري ، فبهت لحظة ثم انهال عليها فمزقها كل ممزق وازبد وارغى وهم ان ينقض على عنق خصمه لولا ان تداركناه

وامسكنا به . لقد فاه امامنا بحديث مستقبح مشين . ادعى انها خليلته وانها تعتاش على افضاله وكرمه وقد خدعته خدعة خسيسة وانها لاتعدو ان تكون سافلة منحطة وانه ارتكب خطأ فاضحا اذ سعى لتشغيل ابن عمها وهو سافل منحط مثل ابنة عمه . واندفع الى غرفة المدير فرجاه بالحاح بالغ الشدة ان يفصل فرج في الحال والا يستقيل هو ويترك الشركة .. وفعلا خط كتاب الاستقالة الا انني ذكرته ناصحا ان صندوقه ناقص وربما يكشف هذا النقص فتسوء العاقبة وتتلوث سمعته الطيبة . فادهشني ان ارى ذلك الكهل الوقور يستجديني بضعة دنانير وقد خرج كليا عن طوره . لكم اضطرب واهتاج في ذلك اليوم حتى اضطر المدير في النهاية ان ينقل فرج الى المخزن .

غير ان الغيظ لازال يحتدم في نفسه ، ليس كارها سماع اسم غريمه فحسب بل انه ليود الا يعترف ان في الشركة مخزنا يضعون فيه الصابون ويعمل فيه مستخدم اسمه فرج .

ليست هى

لعلي كنت اقرب الناس الى قلب السيد اسطيفان فأنا زميله في العمل اصاحبه ساعات الدوام الست والحق به في اغلب الاحيان الى المقهى فنجلس ساعات المساء نثرثر في شوؤن الحياة . كان الرجل مطلعا واسع المعرفة لايعدم معه الجليس حديثا طليا يستقى مصادره من الكتب والمجلات التى يعكف على الاغتراف من بحوثها .

كنت انا قد تزوجت منذ ثلاثة اشهر ونعمت بحياة زوجية هانئة وكان اسطيفان يعتزم الزواج من فتاة من غير اسرته تقيم في بلدة نائية تبعد عنا نحو ار بعمائة كيلومتر .

لم يكن اسطيفان جميلا كما انه ليس بالقبيح ، فهو ضرب من الوقار الخالص والشخصية الرزينة الجديرة بالاحترام ، لا يمت لادونيس بسبب ولا يحمل انفا اغريقيا ولا شفتي كيوبيد ، وانما رجل مهذب حسن الثقافة كريم صادق قد تجاوز الثلاثين باربعة اعوام . كان على اهبة الزواج كما قدمت وقد ابتاع اشياء زواجه من النوع الممتاز الجيد . فثمة الصوان الصاجى المدهن بالدملوك ، والسـرير الوثير المحشو بالنوابض القوية والافرشة والراديو وخزانة الكتب . كانت غرفة جميلة منسقة لا تعوزها الا الزوجة المنتظرة .

وكان قد اراني صورة خطيبته كما اراها الزملاء جميعا الذين يعملون فى معيتنا ، فأمعنا النظر الى تلك الملامح الرقيقة الفاتنة لفتاة تتخطى عامها العشرين يزين محياها عينان خضراوان وشعر كستنائى لم يشهد من ادوات التجميل غير المشط ويحلي بشرتها بياض حليبي بالغ الروعة . كان اسطيفان يقول في كل مرة انني خسرت الشهادة العالية لانني لم اكمل دراستي كما انني لم انل حقوقى في الوظيفة ولم احرز رتبة ولا منصباً غير انني حزت على زوجة جميلة فاضلة هى مكافئتي الكبيرة وربحي العظيم .

واخيرا ارتحل اسطيفان الى بلدة خطيبته ، فخففت الى المحطة اودعه وارجو له السعادة متمنيا له زواجا موفقا ، وحدد لي موعد عودته بعد اسبوعين اثنين ، فاكدت له انني ساكون باستقباله واستقبال عروسه في المحطة ، وثمة حفلة شيقة مؤنسة ازمع اقامتها بالمناسبة . كانت اجازته عشرون يوما الا ان اسطيفان عاد مع زوجته فى نهاية اليوم التاسع عشر من الاجازة فلم احظ باستقباله كما وعدت ، وقد باشر عمله في اليوم التالي بهمة لا تشوبها شائبة متقبلا تهانى زملائه بنفس راضية ووجه مشرق غير انه لم يدع احدا الى منزله ولم يشهده زميل او صديق في نزهة او مسيرة مع زوجته الحسناء ، وهذا امر كان يدعو الى الاستغراب والتساؤل لاسيما وانا صديقه ونديمه وموطن اسراره فقد مضى على زواجه نحو شهرين ولم تقع عيناي على وجه زوجته ، فكنت اتساءل ما الذي حل بصديقي اسطيفان ، وهل غدا من اولئك المحافظين المتزمتين الذين يودعون زوجاتهم وراء الستر والحجاب ويحرمون عليهن النزهة والكلام ، ام ان الزوجة بليدة حمقاء لا تألف الناس ولا تحسن المجاملة فيخشى خراقتها وزلة لسانها . كل هذا كنت افكر فيه والتمس له الجواب .

وذات يوم مررت بمنزله مر الكرام فخرجت لى امرأة حنطية اللون ضيقة

العينين ذات عنق طويل متيبس مسكينة وديعة كالتى يالفها الناس في خدمة البيوت الكبيرة ، يتشبث بذيل ثوبها طفل فى الثالثة قالت المرأة ـ ان اسطيفان ليس في المنزل وقد تلتمسه في المقهى الذى اعتاد ارتيادها كل يوم .

تحدثت المرأة حديث الخادمة عن سيدها ، فعجبت ان تكون لاسطيفان قدرة مالية لاستئجار خادمة ومع الخادمة طفلها فتشجعت وسألت ـ وانت من تكونين ؟ قالت في بداهة ـ انا زوجته وهذا ابني من زواجي الاول ـ واشارت الى الطفل المتشبث بذيل ثوبها .

عبثا حاولت كتم احتقارى لصديقي اسطيفان، ، فانه قد كذب كذبة لا يجترحها امهر الكاذبين واختلق حديثا لا يختلقه حتى الراجمون بالغيب . كيف تكون الفتاة البيضاء الكستنائية الشعر ذات العينين الخضراوين ارملة سمراء متيبسة العنق تسحب خلفها طفلا فى الثالثة . قلت لنفسى لاكشفن سر هذه الكذبة وان الحفت فى الاستفسار واتخذت مظهر المحقق وسلكت خلاف مألوف عادتي . مشيت الى المقهى فلقيت اسطيفان يطالع صحيفة ، هادئا رزينا مجللا بالوقار يلمع في بنصره خاتم الزواج الذهبي ، عليه كل سيماء الرجل الموفق قلت ـ مررت بمنزلك فلقيت امرأة معها طفل من هذه المرأة ؟ ـ اجاب في بداهة دون ان تختلج في وجهه اية جارحة انها زوجتي ـ ومضى يحدق فى وجهي تحديقا موصولا عازما من غير ريب ان يتمتع برؤية الدهشة التى علت محياى . قلت معاتبا وبنبرة ازدراء ـ انك يا اسطيفان اريتنا صورتها عشرات المرات . كانت بيضاء ناهدة الصدر كستنائية الشعر وهي فتاة باكر فيما ذكرت وانني اليوم القى في بيتك ارملة حنطية اللون ضيقة العينين ، ما الذي كان يدعوك الى هذا التلفيق العريض وانت رجل صادق صريح لم تلوث اسمك قبل اليوم بكذبة ولا فرية ولا ادعاء باطل . ابتسم اسطيفان ابتسامة باردة وخرجت من

شفتيه شهقة مؤسفة فاستشعرت بالخجل من شدة اندفاعي الى مسألة ليس لي فيها كبير شأن ، ومع ذلك فلم يشده اسطيفان لكلماتي ولم يغضب . قال بترو وهدوء سأروي لك ما حدث .

حين وصلت بلدة خطيبتي تلك التي تتحدث عن صورتها .. يممت في الحال شطر منزلها وانا مفعم سعادة واملا ، تائق الى احتضانها وامتلاكها من راسها الى اخمص قدميها ، غير انني لم القها في المنزل انما لقيت ابويها . كانا يرتديان ثيابا حسنة ويتعطفان سترا جديدة وقد اقتعدا على الارائك تحوط بهما جدران مكسوة بالسجادالايطالي المزخرف المنقوش . وكان ثمة اشياء اخرى قداتخذت سبيلها الى التحسن والتجمل على نحو ظاهر وهولم يكن متوقعا ، اذ لم يبلغنى انهم اصابوا ارثا او نالوا جائزة او ربحوا في تجارة اوعمل فاستشعرت الريبة ولا ولا اقول الاغتباط والفرح لان الوجهين الباردين المذنبين اللذين طالعاني بهما الوالد والوالدة بددت امالي كما يبدد المنفاخ الرماد من الكور قال والدها دونما ان يتحسس جسامة خدعته ـ اننا وياللاسف وقعنا تحت ضغط اناس وجهاء اولي وزن في بلدتنا فلم نقو على ردهم ومع ذلك فليس فى نيتنا ان نعجلك تخسر شيأ ، سيعاد اليك كل ما تكبدته وانفقته ووفقك الله ـ لا اقول ان الارض زلزلت تحت قدمي واظلمت الدنيا فى عيني وجف من قلبي الدم . انما اقول انني تجالدت تماسكت لئلا اذوب حسرات . نعم سلبني بعض الناس خطيبتي وهو ابن طاغية من طغاة الارض ، ابن رجل متنفذ واسع الثراء من اولئك الذين يبسطون ظلهم الرهيب فى ارجاء البلاد . قلت متضرعا ـ يا سيدى انك وعدتني واقسمت ان تكون ابنتك لي وانت رجل لا ينكث عهدا ولا يخون ذمة كيف سوغت لهذا الظلم ان ياتي على يديك ـ فهز راسه اسفا ولم يحر بحرف ، فالححت في حدة ـ ولكن عليك ان تفسر معنى خيانتك ، يجب ان

تقول شيء افهمه ، فلم يجدالوالد بدا من الكلام . قال في نبرة خافتة وكانه يسر لي سرا ـ لقد ارهبونا ، ارادوا ابنتنا عنوة وهددونا باختطافها واضحت حياتنا جميعا في خطر ـ قلت له ـ ان لم يقع زواجها برضاك كيف قبلت هذه العطايا والسجاجيد ـ قال الرجل وهو يكاد يبكي ـ يبست ارادتي ، اتوا بها وسمروها بالجدران والبسوني هذه الثياب وامروني ان اتظاهر بالفرح والرضا ، انني اذا عصيت لهم امرا اذاقوني شر العذاب واحرقوا بيتي ، هذا سر بيني وبينك فتوكل على الله ، وارجو الا تعدم زوجة ترضي مزاجك وهواك .

لم اجد بدا من قبول الامر الواقع والرضوخ له صاغرا . استلمت نفقاتي بالتمام والكمال وخرجت اجر اذيال الخيبة دون ان تكتحل عيناي ولو مرة وداعية اخيرة على خطيبتي .. فرحت اتصور في ذهني مبلغ الصعـــاب التي ستواجهني ان عدت اليكم بغير زوجة . انكم تنتظرون اوبتي وقد اريتكم صورتها وعرفتموها حتى انكم لو التقيتم بها في الطريق لاشرتم اليها . كان على اتخاذ حل لهذا الاشكال وانها بالاحرى لمحنة حقا تستدعي تدبير عاجل لستر الفضيحة وتدارك الفشل . كنت استعظم ان اعود صفر اليدين بائسا مدحورا مسلوب الكرامة . فصرت اضرب اخماسا باسداس لا اكاد اقيم في بلد يوما واحدا حتى ارتحل الى سواه ، وكأن الابليس نفسه يلاحقني وينغص راحتي ، حتى بلغت ذات مساء بلدة (ش) وهي بلدة كبيرة لاتعدم فنادق مريحة لا ينهشك فوق فوق سريرها الاسرب صغير من الذباب ،فآخترت افضلها منظرا ؛ وكان يقع على سفح رابية خفيضة تشرف على جدول صغير رائق الماء سريع الجريان ينحدر بين صخور منحوتة مرسلا خريرا ناعما لايكاد يسمع في النهار ، وعلى هذا الجدول يقوم جسر خشبي متين تعبره السابلة والعربات في ضوضاء رتيبة لا تنقطع ، لذا فضلت غرفة جانبية تواجه هضاباً بالغة الارتفاع اشبه بسلاسل الجبال ، حيث

كان في ميسوري ان ارى عددا من الرعاة يقودون معزاً جبلياً ذا شعر طويل مسبل وراس مثلث تتسلق الاكمات كما او انها ارض منبسطة .

والعادة في فنادق المدن الصغيرة ان يفد الفندقي على النزيل الجديد بعد ان يمكث بعض الوقت للراحة ، فيحييه تحية مجاملة ويسأله عن حاله وراحته ويدله على موضع المغسلة والحمام ودورة المياه والمطعم الجيد الذى يمكن ان يتزود منه بالطعام دون ان يشكو من جرائه مغصا او تخمة كما يدله على اماكن النزهة واللهو . وهكذا لقيت امامي رجلا مهيبا بلدي الهيئة دمث الخلق لطيفا مؤنس الحديث ذكر لي كل ما يمكن ذكره وهم ان ينصرف ، الا انه اضاف في اخر لحظة ـ وثمة غسالة خاصة بالفندق نستطيع ان نستدعيها وتسلم اليها ملابسك الوسخة ـ فتذكرت انى اضع على جسدى اخر قميص نظيف والحقيبة محشوة بالوسخ منها ـ قلت ـ نعم لدي كثير من الملابس الوسخة او تفضلت باستدعائها فحنى راسه انحناءة امتثال وقال ـ سابعث فى طلبها اللحظة ـ ومضى فانتحيت صوب النافذة ورحت اسرح النظر متفكرا في حال هؤلاء الرعاة المنعزلين عن الدنيا ، حتى ان معظمهم لم يصل الى العاصمة يعد ويشغل ذهنه حادث او قضية ولكننى سرعان ما نبذت هذه الفكرة ، ان بعضهم يكره على الحضور الى المحكمة ويغرم ويسجن لان اغنامه اخترقت منطقة محرمة او نهشت غصنا او حشيشا . شعرت ان وقع قدمين يقتربان من الباب فاستدرت لارى فرأيت المرأة التي رايتها انت اليوم . اقول كانت امرأة من عادى النساء ذات يدين شديدتى البياض متشققتين بسبب احتكاكهما الطويل بالصابون ، ليس في مظهرها ما يبهر ويفتن ولا ما يصد ويؤلم فدفعت اليها بثيابى الوسخة ، فجمعتها فى حزمة واحدة تأبطتها بذراع قوية فاستوقفتها وسألت هل هذه هي حرفتك ؟ قالت نعم هي حرفتي واعيل عن سبيلها بيتي وولدي قلت ـ انت اذن ارملة ـ اجابت

في حياء قليل ـ هو كذلك فقد مات زوجي منذ عام وخلف لي ولدا واحدا من غير مال ولا نشب فكان علي ان اعمل في هذا السبيل او ذاك فاخترت غسل الملابس

ولا ادري كيف انبثق الفندقي في الغرفة وشرع يقول اسفا ـ كان يعمل خادما في هذا الفندق . . رحمه الله لشد ما اسفنا لموته . . ولكن القدر ـ وضرب كفا بكف واضاف ـ انني لم اشأ ان احرم اسرته من اسباب الكسب ، فانا استدعيها لغسل ثياب النزلاء ان ارادوا ، والحق انني لا ادعها تصل الى غرفة النزيل ولكنني وجدتك انسانا كريما فلم ار في ذلك بأسا ـ ثم التفت اليها واوصاها ان تحسن الغسل وتكوي القمصان وترفع اسم فندقه باعتباره احسن فندق في البلدة ثم مضى الاثنان .

في صباح اليوم التالي وفدت المرأة كرة اخرى فلاحظتها ترتدي فستانا نظيفا جيدا وقد سوت شعرها تحت عصابة حمراء من الحرير وبدا وجهها باسما نضرا ولسبب ما وجدت انها ارشق قامة وأملأ جسدا . والحق انها ملأت عيني قدر ما ضيقتهما في اليوم الفائت . كانت تحمل ثيابي داخل صحيفة قديمة يفوح منها عبير الصابون ، وكان معها ابنها ، وانك رأيته اليوم ، والحق ان الابن اصاب مكان الرضا في نفسي كما اصابت الام .

كنت مستلقيا فوق سريري مستندا بظهري الى الجدار ومرسلا قدمي الى الارض فدنا الطفل وصار جواري منتظرا ان اداعبه بكلمة فرفعت ذقنه باصبعي وتأملت وجهه البريء الطافح بالمسكنة ، فأستحيا باديء الامر ثم ما لبث ان انطلق يتحدث ويبتسم ويعبث باشياء الغربة دون ان يحاول اتلاف شيء . ثم اقبل الفندقي والقى نظرة على الثياب النظيفة وهز رأسه متباهيا ـ انها في غاية النظافة ، نحن نعتمد عليها كثيرا ـ فدعت المرأة طفلها وامسكت بيده وانصرفت مودعة فشيعتها بنظرة فاحصة .

لقد اعجبتني

استرسل الفندقي ـ امرأة مثالية كريمة وامينة ، اذكر لك عنها انها عثرت ذات مرة على ورقة ذات عشرة دنانير في جيب قميص فردته الى صاحبه وكان بامكانها وامكان سواها ان تسرقه من غير ان تثير ريبة احد .

التمعت فكرة الزواج في راسي كما يلتمع البرق وسط سحابة كثيفة سوداء فيشقها الى نصفين ، وكان ذلك امر غريب ان يفكر رجل في الزواج من امرأة يتعرف عليها في يوم او يومين وتعمل غسالة في فندق . لقد اعتزمت ان انفذ الفكرة في سرعة لا تفوقها سرعة . كانت اجازتي قد قاربت نهايتها الا بضعة ايام .

قلت وفي صوتي رنة مزاح ـ ان كنت تضع فيها هذا القدر من الثقة فانا اعرض عليك اقتراحا ـ قال في جد ـ اي اقتراح ؟

قلت ـ انني اتزوجها

صمت الفندقي وران التفكير على وجهه وهمهم بضع مرات في صوت خافت ومضت لحظات من غير ان يجرأ احدنا على الكلام . كانت كلمة الزواج رهيبة موقرة لا يجوز ان يتواصل الحديث بعد ذكرها ، قال الفندقي اخيرا وقد شاعت ابتسامة واهنة على شفتيه .

ـ الحق انني ابارك هذا الزواج ، واحسب انها فرصة لا تفوت على الارملة المنكوبة . ثم ان كنت انا املك فراسة لا تخيب ولا تخطىء ففي حسباني انك رجل كريم يصح للمرء ان يركن اليك ويستشفعك ولكنني اسألك وارجو ان تسمح لي ان اسألك هل كنت تنتظر ان تأتي الى هذه البلدة الصغيرة من اجل ان تتزوج امرأة ارملة غسلت لك ثيابك . ان وراء فكرتك يكمن سر ما

منعني سبب ما ان احدثه حديث خطيبتي ولعلي وجدت ذلك يضعف موقفي

انما قلت مؤكدا ـ كافة الناس يتزوجون ، بعضهم صدفة وبعضهم بعد تصميم ولا يعوز المرء وقت طويل كي يتامل ويمعن النظر ويراجع الخبراء والمطلعين انك ذكرت عنها ما يغني ويفيد وانا اثق بك ، وفضلا عن ذلك فانا اتزوج للمرة الاولى وعندي ما يكفيني من المال وفي مقدوري ان اسعدها وارفع حظها فأن شئت حدثها وشاورها وان لم تشأ فعلت ذلك بنفسي .

ابتسم الفندقي في ارتياح وقال ـ انك مصمم وجاد وعليه سأتعهد لك بانجاز فكرتك ـ قلت شبه محذرا ـ انني على اهبة السفر بعد ايام ـ فرجاني ان امهله بضع ساعات ، ثم سالني عن حرفتي واسمي فذكرت لو انني موظف واريته بعض الاوراق فاطمأن كثيرا ومضى راضيا هماما

ثم جاءتني الاخبار تحمل البشرى ، فدفعت للفندقي مبلغا مناسبا كمنحة اليها فابتاعت بعض الالبسة واشياء الزينة والحلي ثم مضيت الى بيت ابويها فلقيت عجوزا واهنة القوى هي امها ، رحبت بي ثم ما لبثت ان بكت لفراق ابنتها وتدانت نحوي والتمستني متضرعة ان احسن معاملتها واجنبها الضرب والاذى ، ثم اقبل والدها من المقهى فقبلني في جبهتي وبارك زواجي واوصاني بابنته خيرا . ويبدو انفكرة الزواج قد انعشتها ايما انعاش واضفت على وجهها سعادة كبيرة حاولت اخفاءها . قلت لها مشجعا ـ ان لي منزلاً موثثا ومجهزا وستكونين سيدة محترمة وربة بيت ـ فابتسمت ابتسامة وديعة رضية كصبية تعدها امها بلعبة . وفي خلال يومين اثنين انحسرت بيننا ستر الاستيحاء فتآلفنا وانسجمنا وما ان تهيأت فساتينها الجديدة حتى شرعت تتزين بضروب العطر وتروح وتغدو في خفة ونشاط ومرح غير مبقية اي أثر من اثار كآبتها وثقل ملامحها ثم كان عقد الزواج وقد تم ذلك في كنيسة البلدة البسيطة الصغيرة وعلى يد كاهن يستحيل ان تجد مثيلا له في كنائس العاصمة . كان وديعا خافت الصوت

رث الثياب تتدلى من ذقنه لحية شائبة . اطال فى المراسيم الىحد مضجر ورتل عديدا من الصلوات والدعوات وفى زعمه انه يخلص ولا يغشني بأدعية قصيرة واذا ما التفت ورائى رأيت جمعا من القرويات وبعض اقرباء العروس يتوسطهم جميعاالفندقي الذي بدت عليه كل مظاهر الرضا والفخر . واذا ما تم كل ذلك انطلقنا الى المحطة وركبنا القطار عائدين .

سألته اخيرا . هل انت سعيد ؟

اجاب بصراحة . ليس المهم ان اكون سعيدا رغم انني سعيد ولكن المهم انني سويت المسألة ولم اعد اليكم صفر اليدين .

الحبيبة المشتركة

قال الرجل الذي يشاركني المائدة في الحانة ـ انني قد قتلت انسانا ولكن بغير عقوبة ولا سجن ولا اصفاد في اليد ولكن بشيء كثير من عذاب الضمير ـ فذهلت وسالته كيف كان ذلك ؟ ، قال :

قبل نحو عام كنت اعمل بوابا في مستشفى نسائي مخصص للولادة . كان المستشفى صغيرا نظيفا انيقا يبعد عن مركز المدينة نحو ميل ونصف الميل . تقع في داخله ردهة كبيرة جدا مصفوف على جانبيها اسرة ناصعة البياض مزود كل منها بسلة سلكية صغيرة متحركة هي مهود للاطفال الذين يولدون حديثا .

كان واجبي ان اقف عند الباب ارشد الزوار الى الردهة واراقب الداخلين والخارجين وامنع المريضات او اخبر عنهن اذا شئن التجول خارج المستشفى او اعتزمن الفرار . وكانت تقع الزيارات المسموحة ثلاثة ايام في الاسبوع هي الجمعة والاحد والثلاثاء ، ففي هذه الايام يلقى الزوار مريضتهم في الردهة ويسمح لهم بتقديم الهدايا والتمتع بحديث طويل قد يمتد الى ساعتين . اما في الايام الاخرى فلا يسمح بالزيارات من وجهة نظر النظام غير انني كنت ادبر مواجهات خفية في قاعة صغيرة في الطابق الاسفل لاولئك الذين فاتتهم الزيارات المسموحة او قدموا من مكان بعيد ولديهم امور هامة مستعجلة مع

مريضتهم . كانت المديرة تنظر الى مثل هذه الزيارات بعدم ارتياح وتأمرني ان امنعها او احدد وقتها بقليل من الدقائق .

ولما كان لكل مهنة مجال كسب جانبية فكنت ارتزق من المواجهين بدريهمات قليلة مقابل ان ادعو للمواجه مريضته وازوده بقدح ماء بارد ان كان عطشان واشعل له سيكارته ان كان بغير ثقاب .

وحدث ذات يوم ان اقبلت مريضة في سيارة تاكسي مع رجل نحيف حسن المظهر رشيق الحركة حسبت من الوهلة الاولى انه زوجها . كانت المرأة حاملا في شهورها المتأخرة قد الم بها مرض مفاجيء هددها بالاجهاض فالتمست المستشفى ليحفظ لها جنينها . كان ذلك الرجل يبالغ فى رعايتها مبالغة مستفيضة فمكث عندها نحو ساعة اطمأن على راحتها وحمل لها من السوق عدة اكياس فواكه وحلويات ومضى لسبيله .

كان اسم المريضة - جيم - او السيدة - جيم - وفي اليوم التالي وكانت مواجهة مسموحة اقبل رجل سمين بارز البطن منتفخ الاوداج فسألنى فى لهفة عن المريضة جيم فقلت في نفسى اى شيء هو هذا، فارشدته الى الردهة بنفسي ورأيت الى لقائهما الحار قال الرجل للسيدة :

حال ان بلغنى الخبر تركت اعمالي في المحطة واستأجرت سياره تاكسي . كيف حالك ، كيف حال ابننا طمأنيني اجابت المرأة :

- انه بخير .. فاردف الرجل :

- اواه كم اتمنى ان اكون بابا .. بعد ان تلدين احملك معي الى المحطة ونقيم سويةفي بيت كبير ذي حديقة ويكون معنا طفلنا وسوف نعمل على تهيئة المهد والاغطية واللفائف له - تنهدت المرأة :

- ما اعظم سعادتى : بيت وولد وزوج ،اللهم اجعل ولادتى سهلة واحفظ

جنيني ثمرة حي وغرامي ،يا حبيبي صاد انني معك الى الابد ـ كان اسمه صاد .

وفي اليوم التالي وكانت الزيارات غير مسموحة ، اقبل بعد مغيب الشمس رجلها الاول الذي اصطحبها الى المستشفى قلت له ـ ان الزيارات ممنوعة اليوم ـ فابتسم في بداهة وقال ـ اعرف ذلك تماما اقرأت لوحة الزيارات ولكن مما يؤسف له ان اكون في ايام الزيارات المسموحة مشغولا بعملي تمام الانشغال وقد استطيع زيارة مريضتي في يومي الخميس والاثنين ـ قلت اذن استطيع ان ادعوها ما اسم السيد قال ـ سين ، قل لها سين وانني منتظر ـ ..ثم اخذته الى القاعة الصغيرة فوضع اكياسه الثقيلة وجلس على المصطبة بينما جريت انا الى الردهة لاستدعاء مريضته ـ قلت لها : ان السيد سين في انتظارك ،فتهلل وجهها فرحا وهتفت : ـ يافرحتي به قل له انني قادمة ـ فهززت راسي مشدوها من سر هذه المرأة . وجرى اللقاء بينهما حارا وديا فجلست قبالتهما بحكم وظيفتي اختلس اليهما النظر وارقب حركاتهما واتسمع حديثهما ، سال السيد سين : ـ كم ستمكثين هنا يا عزيزتي . قالت ـ ربما اسبوعين او ثلاثة ـ تنهد الرجل ـ اواه ما اسعدني ، لكم اود ان يكون الوليد صبيا في مثل جمالك ـ فابتسمت المرأة في فتنة لا تصطنعها غير العاشقات ـ مشيئة الله يا عزيزي اننا يجب ان نشرع بتهيئة لوازم الطفل فاجاب الرجل في استغراب ـ ما الذي تقولين كل شيء جاهز :المهد والالبسة . ثم دنا من اذنها هامسا اتحبينني كثيرا يا جيم ـ فاجابت كثيرا جدا ولن نفترق الى الابد .

وقام الرجل ليودعها وكانه يودع فلذة من روحه قال وهو يضع بين يديها هداياه ـ كلي وتمتعي وانتعشي ولا يداخلنك القلق ـ وابتسم لي ابتسامة عريضة ونفحني بدرهمين قائلا : تذكر الاثنين والخميس وارع شؤون السيدة رعاية حسنة فاجبت ـ انني كذلك ـ .

وفي ظهيره اليوم التالي حيث تغادر الطبيبات المستشفى وتعتكف المديرة في غرفتها ، تسللت السيدة جيم الى السلم وتناولت سماعة التلفون وشرعت تخابر السيد صاد قالت ـ الزيارات مسموحة اليوم فارجو ان تزورني يا عزيزي وانا فى تحسن ملحوظ انما تعوزني المقويات والاطعمة المغذية حسب ما تشير علي الطبيبات هنا فى سبيل سلامة الطفل وتسهيل الولادة .. نعم علبتان من الشوكلاتة وحقة من التفاح الفارسي الاحمر ونصف حقة فستق وعلبة جبن هولندى وشيئا من الكيك الهش المحشو بالمربى وتعوزني مناديل للمسح والتمخط .. لا تخشى شيئا يا عزيزي الجنين في مكانه وفكرة الاجهاض بعيدة جدا .

وفي المساء اقبل السيد صاد محملا بالرزم الثقيلة يلهث من التعب ويجفف عرقه باستمرار فمشى الى الردهة وجلس نحو ســـاعتين الى جانب سرير مريضته يتناجيان ويتغازلان وموضوع الجنين قد شغلهما تمام الاشغال ،فاستلمت جيم الهدايا وكدستها في الجرارة الخاصة بالمريضات وهي في زعمي تكفي لتغذية عشر نســـاء .

وفي مساء الخميس اقبل السيد سين محملا هو الاخر بالرزم والاكياس فكانما هو مدعو الى اغاثة ضحايا زلزال ، فدعوت له السيدة فجاءت باسمة على عجل فبادرها بالسؤال عن صحتها وصحة الجنين فطمانته فى حرارة وساعدتها على حمل الهدايا الى جرارتها وسألتها ـ ان لديك الكثير من الهدايا ـ قالت ـ انى اهب معظمها للمريضات الفقيرات ولا استبقى لنفسي غير القليل ـ ولاحظت حقا ان المريضات كافة صرن يتسلمن منها ـ راشنا ـ منتظما من الجبن الهولندى والتفاح الفارسي والفستق وكل ذلك هدايا زوجها او حبيبها المزعومين

انقضت اسابيع ثلاثة لم يقع حادث ما يكدر صفو السيدة جيم فهي

على قدر كبير من المراءاة وازدواج الوجه . فهي تستلم الهدايا من كل من الرجلين بالتناوب وتوزعها على المريضات ولم يقم في ذهني اى فارق يمكن ان يميز مكانة احدهما عن الاخر ، فكلاهما يحدثها حديث الازواج وتحدث كليهما حديث الزوجات ولم يصدف قط ان التقيا ذات يوم في ساعة واحدة .

قلت في نفسي لاكشفن هذا السر العجيب . في مساء الاحد اقبل السيد صاد لاهثا من التعب يتأبط اكياسه ورزمه فجلس الى السيدة جيم في الردهة بعض الوقت، وانصرف فلحقت به عند الباب وقلت له ستكون في الغد مواجهة عامة للمريضات جميعا . انه يوم الام تقيمه ادارة المستشفى سنويا وتقدم للمريضات اكلات خاصة وكعك وشاى مع مربى، وفي الغالب تستدعي الادارة جوقة موسيقية صغيرة للترفيه والموانسة سيكون هنا شبه احتفال ، ان شاء سيدى ان ياتى فانه لن يعدم متعة حسنة له ولمريضته .

اجاب الرجل شاكرا ـ حقا ..لم يصل الى علمى امر مثل هذا ـ فاكدت له ـ نعم نعم احتفال وتسلية ومواجهة عامة ، انني لاخدعك ولسوف تشكرني ـ قال الرجل ـ اذن انني سأتي من غير بد شكراً جزيلا .

كان اليوم التالي هو الاثنين موعد زيارة السيد سين في القاعة وقد أقبل هذا نحو الساعة الخامسة محملا بالاكياس فاستدعيت له السيدة جيم في الحال فأقبلت تتهادى بحمل بطنها اذ كانت ولادتها قد غدت وشيكة فبدا على سين الفرح الشديد فدنا نحوها كثيراً متمنياً أن تتاح له فرصة تقبيلها لولا خجله من وجودى . قالت السيدة جيم ـ زالت آلامي جميعاً وغدت ولادتي وشيكة وربما أترك المستشفى بعد أسبوعين ـ أجاب سين ـ هذا حسن جداً كل شيء جاهز لك وللطفل .

مضت ربع ساعة فقط حين ظهر السيد صاد عند باب المستشفى . كان مثله دائماً . تعباً لاهثاً كأنه أقبل مترجلا على قدميه ، وما ان وقعت انظاره على

سين وهويحادث جيم حتى تحول الى وحش ضار فألقى بنفسه فوقه كما لو انه يعتزم تمزيقه فأستقبل سين هجمته ببراعة جسده الرشيق وخفة حركاته فنشب بينهما العراك فما كان من السيدة جيم الا أن خرت الى الارض مغشياً عليها فانصعق الاثنان وتركا عراكهما وصارا يفركان لها قدميها ويديها وعنقها وهما يتبادلان النظرات الحاقدة المشبعة عداء وكراهية ، فهرعت لاحدى الممرضات استدعيها لمعالجة جيم فنقلوها الى غرفة الاسعاف وهي لما تزل مغمى عليها فنشب عراك كلامي بين الاثنين. هدر صاد ـ ايها الداعر السفيه انها زوجتي انا وولدي ما شأنك انت •

فأجات الآخو بذات الحرارة ـ بل زوجتي وولدي ولا شأن لك انت •

ـ انني تزوجتها

ـ بل انا الذي تزوجتها

ـ من ادراك انها في المستشفى ايها اللص ؟

ـ وما ادراك انت ايها الجاسوس الوضيع ؟

فطال نقاشهما وهما يكادان في كل لحظة يتماسكان ويتقاتلان فأفصل بينهما حتى اقبلت الممرضة فاندفع كلاهما نحوها . قالت متساءلة لاي منكما أوجه خطابي ـ قال صاد ـ تفضلي انا ـ وقال سين ـ بل قولي ما عندك ـ فضحكت الممرضة ـ حسناً اذن فاعلما ان السيدة قد أجهضت جنيناً ميتاً ـ فهوى صاد على كرسيه دافناً وجهه بيديه الاثنتين ، أما سين فمشى متثاقلاً الى الباب وأنصرف حزيناً كسيفاً فزفر صاد بحنق ويأس وتقدم هامساً في اذني ـ انه يوم الام اليس كذلك ـ فقلت له بغير مبالاة ـ انه يوم الازواج المخدوعين •

وبعد اربعة ايام نزحت السيدة جيم المستشفى ،قد انخفض بطنها ، وشحب وجهها ، وغام بريق عينيها ، فرشقتني بنظرة طويلة معاتبة فصمدت لنظرتها بجلد.

وعلمت فيما بعد ان السيدة جيم ارملة وان اياً من الرجلين لم يعقد عليها انما هى تعدهما وتستثمرهما وهما لا يدريان ٠

قال اخيراً ـ وهذا ترى انني قتلت انسانا لغير ماسبب سوى حب الاستطلاع أو قل الخبث ٠

ثم أبتسم ابتسامة مرة وانصرف عن مائدتى مودعاً



قريباً

خبز الكوفة

اقاصيص

مطبعة الثقافة شارع الرشيد بغداد